الفصل الأول

عصر أبي الفرج الأصبهاني

١ ـ الحالة الاجتماعية والفكرية

أشرف أبو الفرج الأصبهاني على عصرين : العصر الثالث والعصر الرابع . لم يقض في القرن الثالث إلا نضارة صباه ، فقد سلخ فيه من عمره ست عشرة سنة ، ولكنه قضى في القرن الرابع شبابه واكتهاله وشيخوخته ، وقضى هذا كله في بغداد ؛ وبغداد يومئذ أم البلاد .

ورث العصر الذي عاش فيه أبو الفرج الأصبهاني أضخم ميراث في كل أفق من آفاق الحياة ، في النواحي المادية والنواحي الفكرية : وورث حضارة بني العباس ، فمَن دخل قصورهم في تلك الأيام ورأى ما اشتملت عليه من الندامى والقيان والنَّوْر والبنفسج والنرجس وفاخر الفرش ومختار الآلات بلغ العجب منه كل مبلغ ، لقد كان الرشيد يصطبح في بعض الأيام فيحضره من جواريه المغنيات والخدم في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زيّ من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ، وكان يبعث في بعض الأحيان من يجني له المال من ناحية الموصل فيجني له منها مالاً عظيماً من بقايا الخراج ، فيوافي به باب الرشيد فيأمر بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه ، حتى استعظم الناس ذلك وتحدثوا به . وكان من عواقب هذا التبذير أن دبّ السوء في الدولة كلها ، في دار الخلافة وأطراف البلاد ، فقد كان عمال الخليفة يوجهون إلى دار الخلافة رسلهم فينفّذ لهم رجال الخليفة كتبهم ، فيدفع الرسل الأموال إليهم . وبلغ من استرسال الخلفاء إلى اللهو أنه لما نعى إسحق إلى المتوكل في وسط خلافته غمه وحزن عليه ، وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . وقد مضى للواثق قول في هذا المعنى أبلغ من قول المتوكل فقد قال : وإن إسحق لنعمة من نعم

الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أنّ العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى .

بلغ اللهو والتبذير فى قصور طائفة من بنى العباس المبالغ ؛ وإذا أردنا أن نعرف ضخامة تلك القصور والتأنق فى بنيانها فلنرجع إلى شعر البحترى ، فهو وحده يحيى لنا قصوراً حيطانها من زجاج وسقوفها من ذهب ، وبركُها من رخام .

ورث عصر أبى الفرج الأصبهانى هذا كله ، ولكنه ورث أيضاً ميراثاً فكريًّا أضخم وأجلّ ، فقد خلّفت له العصور السابقة أعظم ما وصلت إليه عبقرية العرب فى النثر والشعر . فالجاحظ مات فى العصر الذى ولد فيه أبو الفرج. وإذا ذكرنا الجاحظ فكأنا ذكرنا خلاصة عبقرية العرب بأجمعها . وأبو تمام والبحترى وابن الرومى تركوا شعرهم للعصر الذى نشأ فيه أبو الفرج الأصبهانى ، وهم من هم فى ضخامة الشعر ورقة الخيال ودقة الوصف . وقد عاش أبو الفرج فى العصر الذى عاش فيه شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس وهو المتنبئ . وفى الجملة كان ميراث عصر أبى الفرج الأصبهانى عظيماً فى كل ناحية من نواحى منظوم القول ومنثوره .

اختمرت اللغة فى ذلك العصر فقدرتْ على وصف دقائق الحياة وجلائلها ، واختمر الشعر فلم يعجز عن وصف أضخم ما بناه الخلفاء من القصور ، واختمر النقد فنشأت آراء النقاد فى المتقدمين من الشعراء والمحدثين ، وذهبت الأفهام فى هذا المعنى كل مذهب .

٢ ــ الحالة السياسية

أما من نواحى السياسة وبعض النزعات فقد فتح أبو الفرج الأصبهانى عينيه فى بغداد فعاش فى عصر بنى بويه ، ونادم الوزير المهلبى ، وكان كاتباً لركن الدولة ، واتصل بسيف الدولة ، وراسل بنى أمية فى بلاد المغرب ، فمن ذِكْر بنى بويه فى بغداد ، وبنى حمدان فى حلب ، وبنى أمية فى الأندلس نعرف وجهة العصر الذى عاش فيه أبو الفرج الأصبهانى ، فقد عاش فى عصر

غلبت فيه نزعات شتى : نزعة فارسية فى بغداد وما وراءها ، ونزعة قومية فى حلب ، ونزعة أموية فى بلاد المغرب ؛ ولا بدّ فى غلبة النزعة الفارسية من نشوء الشعوبية ، فقد نشأت الشعوبية فى العرب ، وكان همها الأكبر الطعن على العرب فى كل مذهب من مذاهبها : طعنت فى خطباء العرب بأمور كثيرة فلم تجد للعرب فضلاً فى خطبها وعقولها وحكمها وحروبها وآلات هذه الحروب ، ولم تنظر إليهم إلا نظرتها إلى رعاة إبل وغنم قد جفا كلامهم ، وغلظت مخارج أصواتهم ، وساءت مآكلهم وخشنت ملابسهم ، والخلاصة أن همّ الشعوبية الأكبر تهديم سلطان العرب فى كل ناحية من النواحى : فى الدين والسياسة والعلم والأدب ، فقد تتبعوا العرب فى كل شىء وألفوا كتباً فى مثالبهم حتى تصدّى من العرب من ردّ عليهم وفنّد مزاعمهم ؛ ولا شك فى أن اتساع صدور العرب لجماعة يحاولون تهديمهم فى حياتهم ، وسماحهم لهم ببثّ أفكارهم ، أكبر دليل على حرية الرأى فى زمنهم ؛ وليس معنى هذا أن أصحاب الأمر كانوا يسكتون عنهم ، فقد كانت الشعوبية ذنباً من الذنوب لأن للحرية حدوداً إذا جاوزت هذه الحدود — وخاصة فى أمور قومية — فقد تؤدى إلى ذهاب السلطان ، ولكن على الرغم من تعقب الشعوبية فقد استطاعت أن تنشر دعوتها وتبث أفكارها وتشغل العرب بالرد عليها .

وكما نشأت الشعوبية فى بعض آفاق الدولة فقد نشأت النزعة القومية فى آفاق ثانية ، وأعنى بها حلب وصاحبها سيف الدولة ، ومن رجع إلى شعر المتنبى فى سيف الدولة تحققت عنده هذه النزعة ؛ وقد كانت النزعة القومية مذهب طائفة من الشعراء الذين تغنوا بسيف الدولة كالسرىّ وأبى فراس وابن نباتة ، فإن شعرهم لم يكد يخلو من ذكر العرب والإشادة بهم ؛ على أن الحرب التى كانت تدور بين المسلمين والروم قد صبغت بصباغ دينى ، فكان ملك الروم إذا غزا بلاد المسلمين يجهز رجاله بالصليب الأحمر ، وكان شعراء العرب يومئذ يذهبون فى بعض شعرهم مذاهب إسلامية مجاراة لطبيعة الحرب بين الروم والمسلمين ، إلا أن النزعة الغالبة على شعرهم كانت نزعة قومية .